الصبر وعدم الشكوى

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي نصح بها نبي البشر ﷺ، وكل الأديان السماوية أعزت ورفعت شأن صاحب الصبر.

قال بعض العارفين: الصبر ثلاث مقامات، أوله ترك الشكوى وهي درجة التائبين، ثم الرضى بالقضاء وهي درجة الزاهدين، ثم محبة ما يصنع مولاه وهي درجة الصدّيقين.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدِه خيراً عجَّلَ لهُ العقوبةَ في الدنيا، وإذا أرادَ اللهُ بعبدِه الشرَّ أمسك عنهُ بذنبِهِ حتى يوافي به يوم القيامة**»(١).

شرح الحديث:

الله ﷻ رقيب على عباده من أفعالهم وهفواتهم، ومن أساء من عباده يمهله ولا يهمله، فإن تاب قَبِلَ توبته ورجوعه لأن الله شديد العقاب إن لم يتب.

إذا أراد الله بعبده خيراً عجَّل له عقوبة ذنبه، يرسل عليه الهموم والابتلاءات تمحصاً للذنوب والخطايا.

فإذا صبر العبد ورضي بقضاء الله ﷻ غفر له من الخطايا، وإن لم يصبر كانت مصيبته مصيبتين ألم المصيبة وعدم الرضا.

وإذا أراد الله بعبده شراً تركه على هواه وأمدَّه بمال وسعادة الدنيا،

---

(١) رواه الترمذي.

فيأتي يوم القيامة ولا حجَّة له عند الله ﷻ على معصيته لمولاه، أعطاه المال وأمده بالعافية فيكون من الذين استعجلت حسناتهم في الدنيا، وإن لم يشكر هذه النعم كان الحساب يوم الحساب.

الدليل القرآني

هنا يأمرهم القرآن أن يستعينوا بعدتي الصبر والصلاة على ما يواجههم ممن في سبيل دعوتهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البَقَرَة، الآية: ١٥٣] .

ثم بيَّن ما ينتظرهم من ألوان البلاء مؤكداً ذلك بلام القسم ونون التوكيد لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البَقَرَة، الآيتان: ١٥٥، ١٥٦] .

وفي بيان القرآن لأوصاف المخبتين وهم أهل الخشوع والتواضع والطمأنينة والسكينة:

في سورة الحج يجعل الله تعالى الصبر من أجمل أخلاقهم وأبرز مزاياهم لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحَجّ، الآيتان: ٣٤، ٣٥] .

البلاء داء والصبر دواء

روي في الخبر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النِّساء، الآية: ١٢٣] .

قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف الفرج بعد هذه الآية؟

فقال رسول الله ﷺ: «**غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن؟ فهذا مما تجزون به**»، ـ يعني أن جميع ما

يصيبك كفارة لذنوبك[١].

لأنه يوجد بعض الذنوب لا تكفر إلا بالصبر على الفقر والجوع والسعي وراء الرزق الحلال.

روي عن علي ﷺ أنه قال: لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ خرج علينا رسول الله ﷺ وقال: «**قد نزلت علي آية هي خير لأمتي من الدنيا وما فيها**» ثم تلا: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ثم قال: «**إن العبد إذا أذنب ذنباً فتصيبه شدة أو بلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً**»[٢].

عطاء أهل الصبر في الدنيا والآخرة

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبد خيراً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجاً، وإذا قالت الملائكة: يا رب صوت معروف، فإذا دعاه ثانية فقال: يا رب قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو شر وادخرت عندي لك ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم الميزان ولا ينشر لهم الديوان، ويُصب عليهم الأجر صباً، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسامهم بالمقاريض لم يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر، الآية: ١٠]**».

أنواع الصبر

صبر على طاعة الله تعالى، وصبر على محارمه، وصبر على مصيبة عند الصدمة الأولى:

---

(١) رواه أحمد وابن حبان.

(٢) رواه الترمذي في الإيمان.

١ ـ من صبر على طاعة الله تعالى وتحمَّل مشقة العبادة والمجاهدة في الصلاة والصيام وكل أنواع العبادة، أعطاه الله يوم القيامة ثلاثمائة درجة في الجنة، كل درجة ما بين السماء والأرض.

٢ ـ ومن صبر على محارم الله ولم يقع في معصية رغم رغبة نفسه، فجاهدها مخافة أن يعصي الله تعالى أعطاه الله تعالى يوم القيامة ستمائة درجة، كل درجة مثل ما بين السماء والأرض.

٣ ـ ومن صبر على المعصية أعطاه الله يوم القيامة سبعمائة درجة في الجنة كل درجة ما بين العرش إلى الأرض.

شخصيات صابرة ذكرها القرآن الكريم

الصبر على طاعة الله:

أما من صبر على طاعة الله تعالى فيما أمر مهما يكن وراءه من مخاطر وتضحيات، هذا النموذج يتمثل في إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

فقد رأى الخليل إبراهيم صلوات الله عليه في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي، ففهم الإشارة وعرف المراد فجاء بابنه المطلوب وعرض عليه الأمر قائلاً: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصَّافات، الآية: ١٠٢].

ترى ماذا كان موقف الفتى وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين، لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه خلَّدتاه في سجل الأنبياء الصابرين وجعلنا منه قدوة للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات، الآية: ١٠٢].

يا أبت افعل ما تؤمر: أي لا تأخذ رأيي ولا تنتظر مشورتي بل نفِّذ ما أمرك الله به، لهذا قال: «افعل ما تؤمر» ولم يقل: «افعل بي ما تؤمر» فقد أنكر نفسه ونسي ذاته كأن الأمر لا يتعلق برقبته وإنهاء حياته.

وصدق العمل القول وأسلم الوالد ولده وأسلم الولد عنقه وتله أبوه

للجبين وتهيأ للذبح بالسكين، وهنا كان الابتلاء بلغ غايته وحقق ثمرته، لقد نجح الوالد والولد كلاهما في الامتحان ونفذا ما أمر الله به دون تردد أو ارتياب، فلا غرو أن جاءت البشرى من السماء ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصَّافات، الآيات: ١٠٤ ـ ١٠٧] .

وبهذا دخل إسماعيل ديوان الصابرين، وسجَّل الله له ذلك في كتاب الخلود ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبيَاء، الآيتان: ٨٥،٨٦] .

الصبر عن محارم الله:

ومن صبر عن محارم الله ولم يقع في معصية خوفاً منه، هذا النموذج يتمثل في سيدنا يوسف عليه السلام، شاب في ريعان الشباب مكتمل الرجولة رائع الفتوة تدعوه إلى نفسها امرأة ذات منصب وجمال والأبواب مغلقة والسبل ميسرة ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يُوسُف، الآية: ٢٣] .

ولقد حاولت امرأة العزيز بكيدها ومكرها وبكل ما لديها من ألوان الإغراء والتهديد أن تذيب من صلابته وتضعضع من شموخه وأعلنت ذلك للنسوة في ضيق وغيظ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يُوسُف، الآية: ٣٢] .

لقد وجد نفسه مخيراً بين محنتين: محنة في دينه: أن يزني ويكون من الفاسقين، ومحنة في دنياه أن يسجن ويكون من الصاغرين، فاختار الثانية على الأولى، وضحى بدنياه من أجل دينه، وبحريته من أجل عقيدته، وقال قولته المعروفة يناجي بها ربه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يُوسُف، الآية: ٣٣] .

وصبره عن المعصية صَبْرُ اختيار ورضا ومحاربة للنفس مع الأسباب التي تغلب عليها:

- فإنه كان شاباً وداعية الشباب إليها قوية.
- عزباً ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته.
- غريباً والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه وأهله.
- ومملوكاً والمملوك ليس وازعه كوازع الحر.
- والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص.

مع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع كل هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله.

والصبر على المصيبة والرضا:

وهذا النموذج يتمثل في سيدنا أيوب عليه السلام، فقد كان أيوب عليه السلام عبداً صالحاً، صاحب مال وأهل وبنين ثم ابتلاه الله بسلب النعمة، فقد المال والأهل والولد ونشبت فيه الأمراض المضنية المعجزة، فصبر على البلاء.

ومن لطائف الأدب في نداء أيوب لربه أنه لم يسأله شيئاً معيناً كالشفاء أو العافية أو إعادة الأهل إليه، إنما اكتفى بأنه ذكر نفسه بالحاجة والضعف، وذكر ربه بما هو أهله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٨٣].

ويقول الله تعالى في سورة (صّ) مخاطباً رسوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص، الآيات: ٤١ ـ ٤٤].

هذه الآيات تكريم وأي تكريم، وتشريف وأي تشريف من الله تعالى لأيوب عليه السلام. كما قال أبو طالب المكي ـ كلمة مباهاة ـ: باهى بأيوب عند رسوله المصطفى ﷺ وشرفه وفضله بقبوله: «اذكر يا محمد» فأمره بذكره والاقتداء به، كقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف، الآية: ٣٥] .

وشرف الله أيوب مرة أخرى بقوله «عبدنا» فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب ولم يدخل بينه وبينه لام الملك: عبداً لنا.

شرفه مرة ثالثة حين استجاب له نداءه ورد عليه عافيته ووهب له أهله ومثلهم معهم. وحين جعل له مخرجاً من يمين حلفه على امرأته وهو في مرضه، تخليصاً له من مأزق الحنث وتكريماً له على جميل صبره، وتوج هذا كله بهذا التذليل الكريم العبارة الندية: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص، الآية: ٤٤] وحسبك أن يسجل الله فضيلة الصبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ فوصل اسمه باسمه، ووصفه بالصبر فأظهر مكانه في القوة والعزيمة، ثم قال: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ وليس هناك أشرف من وصف الإنسان بالعبودية لله تعالى.

الأقدار مكتوبة والأرزاق مقسومة

شكى نبيٌ من الأنبياء بعض ما ناله من المكروه فأوحى الله إليه: كم تشكوني! ولست أهل ذم ولا شكوى، فهكذا كان بدء شأنك في علمي فلمَ تسخط؟ أتريد أن أعيد الدنيا من أجلك؟ أو أبدلَ اللوح بسببك؟ فأقضي ما يسرُّك كما تريد لا كما أريد، ويكونُ ما تحبُ دون ما أحب؟ فعزتي حلفتُ لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة ولأحرقَّنك بالنار ولا أبالي[1].

(١) حالة أهل الحقيقة مع الله.

الطبيب هو الله

وحكي أن رابعة البصرية مرضت فقيل لها: أما ندعو إليك طبيباً؟

فقالت: من قضى علي؟

قالوا: الله تعالى.

قالت: أو مثلي يردُّ قضاء سيده؟

ومرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقيل له: أما ندعو لك الطبيب؟

فقال: قد رآني ربي وقال: إني فعَّالٌ لما أريد.

وجاء في الخبر عن النبي ﷺ: **«إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين فقال: انظروا ما يقول عبدي، فإن هو قال: الحمد لله رفع ذلك إلى الله وهو أعلم، فيقول: لعبدي عليّ إن أنا توفيته أن أدخله الجنة، وإن شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفِّر عنه سيئاته»**[1].

أول ما كُتب في اللوح المحفوظ

وفي الخبر أن أول ما كتب سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ «لا إله إلا الله محمد رسول الله، من استسلم لقضائي وصبر على بلائي وشكر لنعمائي، كتبته صدّيقاً وبعثته يوم القيامة مع الصدِّيقين، ومن لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليختر رباً سواي».

أوحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء: إني قدّرت في أم الكتاب أني إذا أحببت عبداً جعلته للبلاء غرضاً وألبسته جلباب الفقر.

وذكر أن في بعض الكتب مكتوباً ستة أسطر:

١ ـ من أصبح حريصاً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه.

٢ ـ من شكى مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه.

---

(١) حالة أهل الحقيقة مع الله.

٣ ـ من لا يبالي من أي باب أتاه رزقه لا يبالي الله من أي باب من أبواب النار أدخله.

٤ ـ من أتى خطيئة وهو يضحك دخل النار وهو يبكي.

٥ ـ من كان أكبر همه الشهوات نزع الله خوف الآخرة من قلبه.

٦ ـ من تواضع لغني لأجل غناه أصبح والفقر بين عينيه[١].

البلاء إكرام أو إهانة

الابتلاء على نوعين: إكرام وإهانة، فكلُّ بلاء يقربك من المولى فهو في الاسم بلوى وفي الحقيقة سعادة، وكلُّ بلاء يبعدك عن المولى فهو في الحقيقة بلوى.

ألا ترى أن الله تعالى ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وكان لسبب ابتلائه الخلة والقربة. وابتلى إبليس عندما أمره بالسجود لآدم تكبر ورفض أمر الله وكان سبب ابتلائه اللعنة والفضيحة.

فقال إبراهيم في البلوى: حسبي ربي.

وقال إبليس: حسبي نفسي.

فنودي لإبراهيم بالخلة، ولإبليس باللعنة[٢].

عن محمد بن خالد عن أبيه عن جده وكانت له صحبة من رسول الله ﷺ.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده ثم صبر على ذلك حتى يُبلغه المنزلة التي سبقت له من الله ﷻ**»[٣].

---

(١) تنبيه الغافلين.
(٢) حالة أهل الحقيقة مع الله.
(٣) رواه أحمد وأبو داود.

صوت يحبه الله

روى عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ ليقول للملائكة: انطلقوا إلى عبدي فصبّوا عليه البلاء صبًّا فيحمد الله فيرجعون فيقولون: يا ربنا! صببنا عليه البلاء صباً كما أمرتنا فيقول: ارجعوا فإني أحبّ أن أسمع صوته**»[١].

رجل من أهل الصبر

كان فتح بن محمد وشاح من أهل الصبر سُمع يقول في جوف الليل: ربي أَجعتني وأعريتني وفي ظلم الليل أجلستني فبأي وسيلة أكرمتني هذه الكرامة؟

ثم يبكي ساعة ويفرح ساعة.

قال أحدهم: دخلت على فتح وعنده ابنته وكانت عريانة ـ أي قليلة الثياب ـ والجو بارد جداً، وابن له مريض فقال الرجل: ائذن لي أن أكسو هذه الفتاة.

قال: لا.

قال: لم؟

قال: دعها حتى يرى الله تعالى ضرها، وصبري عليها فيرحمني.

قال: فتجاوزت إلى الصبي فقعدت عند رأسه. فقلت: ألا تشتهي شيئاً؟

فرفع الصبي رأسه إلى السماء وقال: منك البلاء ومني الصبر[٢].

مقام أهل الصبر عند الحساب

عن علي بن الحسين ﷺ قال: إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى

---

(١) رواه الطبراني في الكبير.
(٢) أحاسن المحاسن.

منادٍ: أين أهل الفضل؟

فيقوم عنق من الناس يريدون الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: نريد الجنة.

فتقول الملائكة: أقبل الحساب، فيقول: نعم قبل الحساب.

فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل.

فيقولون: ما كان فضلكم في الدنيا؟

فيقولون: إنا كنا إذا جُهِل علينا حلمنا، وإذا أسيءَ إلينا عفونا.

فتقول الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين، ثمّ ينادي منادٍ: أين أهل الصبر؟

فيقوم عنق من الناس يريدون الجنة فتقول لهم الملائكة: أين تريدون؟

قالوا: نريد الجنة. فتقول الملائكة: أقبل الحساب؟

قالوا: نعم. فتقول الملائكة: من أنتم؟

قالوا: نحن أهل الصبر. فتقول: وما كان صبركم؟

فيقولون: صبّرنا أنفسنا على طاعة الله وصبّرناها على معاصي الله.

فتقول الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين، ثم ينادي منادٍ: أين جيران الله في داره؟

فيقوم عنق من الناس يريدون الجنة، فتقول الملائكة: أين تريدون؟

فيقولون: نريد الجنة. فتقول الملائكة: أقبل الحساب؟ فيقولون: نعم. فتقول الملائكة: من أنتم؟

فيقولون: نحن جيران الله في أرضه. فيقولون: وما كان جواركم؟

فيقولون: كنا نتحاب في الله وكنا نتباذل في الله وكنا نتزاور في الله.

فتقول الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين.

وقد روي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: «**ما أنتم**»؟

فقالوا: مؤمنون. فقال: «**وما علامة إيمانكم**»؟

قالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ـ أي مُر القضاء ـ فقال: «**مؤمنون ورب الكعبة**» ـ وفي رواية أخرى: «**حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء**»[1].

الصبر على الدعوة

يجب الصبر على نشر الدعوة في سبيل الله، والحكمة من ذلك إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو تُرك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط لاستوى الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز به الصادق عن الكاذب، وصدق الله القائل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣].

خباب بن الأرت العبد الصابر

عندما أسلم خباب بدأت سيدته «أم أنمار» بتعذيبه، فكانت تضع حديدة محمَّاة وتضعها على رأسه حتى يدخن رأسه ويغمى عليه، وقد وقع على «سباع بن عبد العزى» أخو أم أنمار تعذيب خباب.

فكانوا إذا اشتدت الظهيرة وغدت أشعة الشمس تلهب الأرض إلهاباً أخرجوه إلى بطحاء مكة ـ أي الصحراء ـ ونزعوا عنه ثيابه وألبسوه دروع من حديد ومنعوا عنه الماء حتى إذا بلغ منه الجهد كلّ مبلغ أقبلوا عليه وقالوا: ما تقول في محمد؟

فيقول: عبد الله ورسوله جاءنا بدين الهدى والحق ليخرجنا من

---

(١) تنبيه الغافلين.

الظلمات إلى النور، فيوسعونه ضرباً ولكماً.

ثم يقولون له: وما تقول في اللات والعزى؟

فيقول: صنمان أصمان أبكمان لا يضران ولا ينفعان، فيأتون بالحجارة المحماة ويلصقونها بظهره ويبقونها عليه حتى يسيل دهن كتفيه. وكان خباب يدعو على أم أنمار وأخيها سباع[1].

إجابة دعوة خباب على الظالمين

ولما أذن رسول الله صلوات الله وسلامه لأصحابه بالهجرة إلى المدينة تهيأ خباب للخروج، غير أن الله استجاب دعاءه على أم أنمار وأخيها سباع، أما أم أنمار فقد أصيبت بصداع لم يسمع بمثل آلامه قط فقد كانت تعوي من شدة الوجع كما تعوي الكلاب. وقام أبناؤها يبحثون لها عن الأطباء في كل مكان، فقيل لهم: إنه لا شفاء لها من أوجاعها إلا إذا دأبت على كيِّ رأسها، بالنار فجعلت تكوي رأسها بالحديد المحمى فتلقى من أوجاع الكي ما ينسيها آلام الصداع. وأما سباع فقد رآه خباب بأم عينه يلقى مصرعه على يد حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد.

أشد ما ذاق خباب

دخل خباب يوماً على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته فأعلى مجلسه وقال له: ما أحد أحق منك بهذا المجلس غير بلال، ثم سأله عن أشد ما لقي من أذى المشركين فاستحيا أن يجيبه، فلما ألح عليه أزاح رداءه عن ظهره فنفر عمر مما رأى في ظهره من أخاديد، وقال: كيف صار ذلك؟ فقال خباب: أوقد المشركون لي حطباً حتى إذا أصبح جمراً نزعوا عني ثيابي وجعلوا يجرونني عليه ـ أي يحبوني عليه ذهاباً وإياباً ـ حتى سقط لحمي عن عظام ظهري ولم يطفىء النار إلا الماء الذي نز من جسدي ـ أي ذاب شحمه من شدة الحرق ـ.

---

(١) صور من حياة الصحابة.

وروي عن خباب بن الأرت ﷺ قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: يا رسول الله ألا تدعو الله؟ ألا تستنصر الله لنا؟ فجلس محمراً لونه ثم قال: «**وإن كان من قبلكم يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفرة، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه**»(١).

أنفق ماله قبل موته

أصبح خباب من الأغنياء غير أنه تصرف في ماله على وجه لا يخطر ببال أحد، فقد وضع دراهمه ودنانيره في موضع من بيته يعرفه ذوو الحاجات من الفقراء والمساكين، فكانوا يأتون داره ويأخذون منه ما يشاءون دون سؤال أو استئذان، ومع ذلك كان يخشى أن يحاسب على ذلك المال وأن يعذب بسببه.

مات وهو يبكي

حدَّث جماعة من أصحابه قالوا: دخلوا على خباب في مرض موته، فقال: إنَّ في هذا المكان ثمانين ألف درهم والله ما شددت عليه رباطاً وما منعت منها سائلاً قط ثم بكى، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن أصحابي مضوا ولم ينالوا من أجورهم في هذه الدنيا شيئاً، وإني بقيت فنلت من هذا المال ما أخاف أن يكون ثواباً لتلك الأعمال، ولمَّا لحق خباب بجوار ربه وقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ على قبره وقال: رحم الله خباباً، فلقد أسلم راغباً وهاجر طائعاً وعاش مجاهداً ولن يضيع الله أجرَ من أحسن عملاً(٢).

ما للمريض عند الله

عن النبي ﷺ قال: «**أنين المريض تسبيح وصياحه تهليل ونفسه صدقة**

(١) رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة.
(٢) صور من حياة الصحابة.

ونومه عبادة وتقلبه من جانب إلى جانب جهاد في سبيل الله، ويكتب له أحسن ما كان في الصحة»[١].

روي أن رجلاً جاء إلى أم الدرداء ﵂ فشكى القساوة من قلبه فقالت: هي أعظم الداء ولكن عُدِ المريض وشيِّع الجنازة واطلع في القبور، ففعل فكأنه رأى في نفسه ما يسره، فرجع إليها وقال: جزاك الله خيراً.

روي عن رسول الله ﷺ أنه دخل على سلمان ﵁ وهو مريض فقال: **«إن لك في مضجعك ثلاث خصال، أولها: تذكرة من ربك وتمحيص وكفارة لما سلف من ذنوبك، وإن دعاء المبتلى مستجاب فادعُ الله ما استطعت»**[٢].

«الصبور» أخلاق ربانية

قيل: أوصى الله تعالى إلى داواد ﵇: تخلق بأخلاقي وإنَّ من أخلاقي أنني أنا الصبور.

قيل: إن امرأة فتح الموصلي كانت من الصالحات، تعثرت فانقطع ظفرها وفي هذا من الألم ما فيه ولكنها حمدت الله وضحكت. فقيل لها: أما تجدين الوجع؟

فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه.

إن يقين الإنسان بحسن الجزاء وعظم الأجر عند الله على البلية يخفف مرارتها على النفس ويهون وقعها على القلب، وكلما قوي اليقين ضعف الإحساس بألم المصيبة[٣].

السقطي مع الصبر

وسئل السريُّ السقطي عن الصبر، فجعل يتكلم فيه فدبت على رجله

(١) رواه الخطيب والديلمي وأبو هريرة في كنز العمال.
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية، والطبراني في كنز العمال.
(٣) الصبر، للقرضاوي.

عقرب وهي تضربه بإبرتها ضربات كثيرة وهو ساكن!!

فقيل له: لمَ لمْ تبعد العقرب؟

فقال: استحييت من الله أن أتكلم في الصبر ولم أصبر.

قيل ليحيى بن معاذ الرازي ﷺ: متى يطيب عيش المؤمن؟

قال: إذا رضي عن الله تعالى بكل ما قضى وقدَّر وحكم ودبَّر.

فقيل: متى يكون العبد راضياً عنه؟ قال: إذا قال العبد لربه: إلٰهي إن أعطيتني شكرت وإن منعتني رضيت وإن دعوت أجبت وإن تركتني عبدت.

دعاء أهل البلاء

عن أم سلمة ﷺ قالت: أتاني أبو سلمة ﷺ يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت رسول الله ﷺ قولاً سُررت به قال: «**لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا فعل به**».

قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه.

فلما توفى أبو سلمة، استرجعت وقلت: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟

فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً[1] فغسلت يديَّ من القرِظ[2] وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسي فلما فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به وأنا امرأة قد دخَلتُ في السن وأنا ذات عيال.

---

(١) إهاباً: جلداً.

(٢) القرظ: الدباغ.

فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي. فقالت: لقد سلمت لرسول الله.

فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ[1].

ما يرشد إليه الحديث تربوياً ودعوياً:

١ ـ أهل الابتلاءات والمصائب ضيوف الرحمٰن وتحت عنايته ما يشكون وما يصبرون وما يشكرون، يكونون تحت أنظار المولى ورحمته.

٢ ـ الأجمل عند صاحب البلاء قبل نزول بلاءه ذكر سيده وذكر اسمه بأن ينزل عليه هذا الأمر، وعندما مرض فتح الموصلي بالحمى وبعد ما شفي صلى ألف ركعة شكر الله ﷻ فسئل عند ذلك، فقال: ولم لا أصلي أو ليس ذكر اسمي من فوق عرشه، علم أن لي ذنوباً فأراد طهارتي فابتلاني.

٣ ـ الصبر يعلِّمنا تحمل مشاق الحياة وألمها وصعابها، كلما ازداد الإنسان تحمل ألم الحياة هانت عليه العيشة ومتطلباتها، وكلما قل صبره صعبت عليه الحياة وشدة ألمها.

٤ ـ إذاً على قدر المعصية تنزل المصيبة، وعلى قدر الإيمان يكون التحمل لأن أحدهم كان يقول: «إلٰهي أحبتك الناس لنعمائك وأحببتك لبلائك» وكان بعضهم لا تجيئهم بليته فيقول: «إلٰهي أي ذنب عملت حتى حرمتني من البلاء».

اللهم اجعلنا راضين بقضائك وصابرين على بلائك وشاكرين لنعمائك.

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه والترمذي.